(بمناسبة مرور عشر سنوات على انتحار الكاتبة وأستاذة الأدب الروسي في كلية اللغات – جامعة بغداد، الدكتورة حياة شرارة وابنتها مها).

مرّ عقد

(جريدة الحياة)

كان أول يوم من شهر آب عام 1997، يوماً محرقاً بحرارته عندما غادرت حياة شرارة بغداد إلى الأبد، كان يوماً هزّ كياننا و قيمنا، وأحرقتنا شمس الفراق بحرارتها، و لم تخلف إلا الشهقة واللوعة في استيعاب هول الخسارة. كانت خسارة انعكست ظلالها على محبيها و شملت حتى تلامذتها، فوضعوا لافتة حداد في مدخل كلية الآداب، معبرين بها عن عمق الفقدان الذي سببه رحيلها عنهم.

لم نكن نعلم برحيل «حياة» عنا ذلك اليوم حتى المساء، عندما لفنا الليل بعتمته، و جمعنا زوجي رفعة الجادرجي في غرفة تطل على نهر التايمز في لندن، و قال لنا موجهاً كلامه لي و لشقيقتي مريم وزوجها جيم:

لقد جمعتكم هذا المساء لأخبركم بخبر مؤلم جداً بالنسبة لي و لكم، وتوقف لحظة عن الكلام، ساد صمت غريب، آذان صاغية، عيون محدقة، ما الذي سيقوله لنا! بلع رفعة لعابه، و نحن بالانتظار!! احتبست الكلمات بين شفتيه، شعرت بمعاناته، أحسست أنه يحمل عبئاً ثقيلاً، لا يدري كيف يتخلص منه!! طال الصمت، و نحن لا زلنا آذاناً صامتةً وعيوناً محدقة، ثم أردف قائلاً بجرأة: توفيت «حياة» هذا اليوم، ساد الصمت ثانية وهيمن الوجوم علينا، انفلتت كلمتان من بين شفتيّ: سكتة قلبية؟ لم يرد عليّ، توقف قليلا متنهداً بعمق، ثم استرسل في إكمال جملته، لقد أنهت حياتها!! كما أنهت ابنتها مها حياتها أيضاً!!

ولماذا وكأن قنبلة حارقة سقطت بيننا، وانقلبت إلى صراخ من الأسئلة الحائرة، كيف ولِمَ انتحرتا؟ صمت رفعة عن الكلام ثانية، شعرت بالاختناق، وانهالت الدموع من عيني، وأنا أصرخ لماذا؟ بين الدموع المتدفقة، أجاب رفعة: لا

ندري!! ثم رفع سماعة التلفون وفاجأني عندما قال لأخي إبراهيم: هذه بلقيس تكلم معها، تملكتني الحيرة، لا أدري كيف أفاتحه بهذا الخبر المفجع! انه بعيد عنا في بيروت. سيطرتُ على أعصابي، وسمعت صوتي يردد: لا ادري كيف أخبرك يا إبراهيم بالفاجعة التي حلت بنا... لقد فقدنا «حياة»!! ساد حاجز من الصمت الرهيب بيننا، لم ينبس بكلمة، فأضفت وكأن صمته شجعني على الاستمرار، كما فقدنا ابنتها مها!! لم اسمع إلا صدى كلماته، يردد: نكبة، نكبة، نكبة! و انفجرت باكية بأعلى صوتي، نعم إنها نكبة حلت بعائلتنا، سحبت أختي مريم بسرعة خاطفة التلفون من يدي، واستمرت في الكلام وأنا أصرخ وأتساءل والدموع تنساب من عيني لِمَ مها؟ لا زالت مها، زهرة في عنفوان شبابها، إنها روح الربيع المتفتح، وغصن غض أجتث قبل أوانه!! لِمَ احترقت و تلاشت بهذه السرعة؟! لما انطفأت جذوة الحياة فجأة؟! أهذا مصير شابة في مقتبل العمر؟

عوت رياح الجزع في داخلي، وتمطت الأفكار السوداء بفحيحها تلتهم ما تبقى من مساحاته، أسائل نفسي في ذلك الليل الطويل وأرد عليها: ما الذي حدث «لحياة» لتقدم على إنهاء حياتها؟ ما الذي حدث لتلك الروح المتطلعة إلى المستقبل ولِمَ تمزقت أحلامها وتلاشت إلى الأبد!!

مرّ طيف من صور حملتها معي في غربتي، حديقة دارها التي كنا نشرب الشاي بها تحت شجر التفاح وعريش العنب، تطوقنا رائحة الأزهار، وزقزقة العصافير عندما تأوي في المساء إلى حديقة الدار، الدار التي خلت من أهلها، وخيم الصمت عليها في ذلك اليوم، و طأطأت الأشجار رؤوسها وانحنت الأوراد مودعة نعشيهما.

مرّ عقد على تلك الليلة، التي ظلت الأسئلة تدور في ذهني حتى انبلاج الفجر، أسائل نفسي لماذا؟ و لِمَ؟ و في الصباح مسكت القلم محاولة تخفيف الجرح الذي أحدثته مأساة وفاتها، و كتبت تعزية عنها، كانت هي المرة الأولى التي أكتب بها، فقد كانت السبب في أن تتفجر عواطفي الملتهبة و لم أجد في تخفيفها إلا بالكتابة.

مرّ عقد انهارت خلاله استبدادية الحاكم المطلق في العراق، الذي كان سبباً في جعل حياتها و حياة أهل العراق مسلسلاً من الخوف والرعب، الذي صورت بعض فصوله في روايتها (إذا الأيام أغسقت). و بثت ما في أعماقها من وجع وجزع وخوف على صفحات الورق الأبيض، فبرزت فصولاً من الرعب الذي اجتاح العراق.

جلسنا بعد سنوات في الغرفة نفسها، الغرفة المطلة على نهر التايمز، نشاهد من خلال التلفاز، الجماهير في بغداد وهي تضرب رأس تمثال الطاغية الذي شوه نفسية شعب بكامله، بالترهيب والحرمان والعنف والقتل. لم نكن نتصور أننا سنشاهد في يوم ما سقوط ذلك الطاغية، ونهاية حكمه، تمنيت أن تكون «حياة» بيننا في تلك اللحظة لتفرح كما فرحنا.

و لكن ما أقصر تلك الفرحة، التي لم تطل إلا بضع ساعات، حتى بدأت بغداد تنزف أمام أعيننا، وتستباح كما استباحها هولاكو منذ سبعة قرون ونصف!! فكسرت ونهبت آثار متاحفها ودمر تراثها، واندلعت ألسنة النار في مكتباتها وأحرقت وثائق الدوائر والمؤسسات، وكأن التاريخ يعيد نفسه عندما دمرت مكتبة دار الحكمة في بغداد منذ قرون!!

لكن رغم استباحة بغداد، ظل الناس مستبشرين، فقد تخلصوا من الكابوس الذي كان جاثماً على صدورهم، خانقاً آمالهم وأحلامهم. وانطلقت في العراق عشرات الصحف والأحزاب، وانعقدت المؤتمرات، بأنواعها وأشكالها، وظهرت شخصيات ووجوه جديدة على المسرح، بعد انهيار عرش صدام، و لكن ظهرت أيضاً عروش جديدة بأسماء جديدة، وانقلبت بعضها إلى إثارة النعرة الطائفية والعرقية والإثنية والعشائرية، فاستبدلت الموجة الشمولية بموجة أصولية، من خلال الفضائيات والإذاعات والصحف. لقد حسبنا أن الطائفية والعرقية والعشائرية قد انمحت في عراقنا الذي نشأنا وترعرعنا فيه! فلن تعرف «حياة» عراق اليوم، فهو عراق بعيد، غريب عن أفكارها وتطلعاتها التي ناضلت من أجلها طيلة حياتها. إذ أن العقلية التي تكمن خلفها هي عقلية صدام حسين المتأصلة في استئصال الآخر. فالتسويات والتنازل يعنيان الخسارة. وأصبح الدين سلعة يباع في المزاد، يزايد عليه رجال مليشيات ملثمة الوجوه، انبعثت وتكاثرت واستشرت كما يستشري السرطان في الجسم العليل. يقتلون باسم الدين على الهوية كما كان يقتل صدام حسين باسم البعث والقومية العربية. أصبح عراق اليوم نقطة جذب لجميع أفكار التطرف التي تتواجد بمسميات جديدة، مدعمة وممولة من قبل بعض الدول العربية والإسلامية. و أصبح القتل والذبح والخطف على الهوية شيء طبيعي في العهد الجديد.!!

مرّ عقد والعراق يمر في مآسي متواصلة، فالعلم يحارب بقتل أساتذته وأطباؤه و طلبته وعلماؤه وخبراؤه. واستشرت هجرة العقول من العراق وأصبحت آفة لا يمكن التغلب عليها، تلتهم العقول و الضمير. مرّ عقد غلب عليه الحزن فأذاب الفرح، عقد لفه دخان الرعب بجناحيه، والناس حيرى يتطلعون إلى السماء علها تشرق شمس الأمان في مدينتهم بغداد.

لا أدري كيف أختصر عقداً كاملاً و«حياة» تحت حفنة من التراب في عتمة القبر الضارية. كنت أتمنى زيارة قبرها بعد سقوط الحاكم الذي كان سبباً في نهايتها المحزنة، زيارة مدينة بغداد التي أحبتها ولم تفارقها!! مدينة بترت أوصالها وقطعت شرايينها، وهُجّر أهلها، وأغرقت في شلال من الدم!! داكن، قاتم، هو الواقع الذي يعيشه الناس، ولا أدري متى يعود العراق إلى شاطئ الأمان!! فأهل العراق لا زالوا في الانتظار...

بلقيس شرارة